حركية التجريب وإشكالية التوطين للنظرية في النقد الأدبي العربي المعاصر

أ.م.د.أنســـام محمد راشد
كلية التربية / ابن رشد للعلوم الانسانية

(الملخّص)

يأتي الحديث عن المشهد النقدي العربي اليوم محمّلا باشكاليات كثيرة ليس اوّلها طرح مسألة المثاقفة والخوض في تفسيراتها وانعكاساتها على المثقف العربي بله خلط الرؤى فيخرج من حقيقة التحاور والتلاقح الفكري والحضاري إلى محرقة التبعية والاستلاب وطمس الهوية.

والحديث عن هوية عربية غاربة لم يشفع لها تراثها الثر الكبير الذي متى ما وضع بازاء النتاج الأدبي والفكري الغربي حديث كانت له الاسبقية في كشوف ما يستقر اليوم بين ايدينا من نظريات أدبية كبيرة وكثيرة خاصة بتحليل النصوص الأدبية وتوصيفها شعراً ونثراً وطرائق تحليلها والكشف عن جماليات أبنيتها، وهذا معناه الدفع بمبدأ المثاقفة إلى الامام لنحوله إلى دائرة تعشيق فكري بناء بين الحضارة العربية وما أنتجه الغرب منذ عصور الاغريق صعوداً إلى عصرنا اليوم.

يتحرك بحثنا من هذه الإشكاليات المجموعة ليناقش مسالتين أولاهما دور المنظر والمفكّر العربي/ الناقد في استيعاب النظريات النقدية المعاصرة بشقيها الحداثية وما بعد الحداثية أو لنقرأ دوره في فورة التيار العالمي الجديد الذي أخذ يبتلع الفكر الثقافي للآخر ويطالبنا بالتأمين على جهوده فحسب، والأمر الاخر ماثل في أننا اذا أخذنا بمجاراة النظريات النقدية العالمية وأفدنا منها لغاية أن تعيننا على انتاج النظرية العربية النقدية المنتظرة منذ خمسينيات القرن الماضي. فهل سنظفر فعلا بما نطمح له ونعمل لاجله منذ سنين.

ويمضي بحثنا ليربط الأجزاء الخاصة ببعض عبر تحليله لدور الناقد العربي في التعامل مع المصطلح النقدي بأنواعه وحسب انتماءاته لنظريات النقد في الحداثة وما بعد الحداثة، وبحثنا يقرأ ليحلل الاتجاهين الفكر النقدي في نظريات الحداثة ومن ثمّ نظريات ما بعد الحداثة معاً، ذلك اننا نؤمن انّ الفصل بين الاثنين غير منطقي تماماً.

١- المثاقفة : تحاور بين الوهم والحقيقة:

يأتي الحديث عن المشهد النقدي العربي اليوم محملا دائما باشكاليات عدة ليس أولها طرح مسألة المثاقفة والخوض في تفسيراتها وانعكاساتها على المثقف العربي بله خلط الرؤى فنخرج من حقيقة التحاور والتلاقح الفكري والثقافي والحضاري إلى محرقة التبعية والاستلاب وطمس الهوية والحديث عن هوية عربية غاربة لم يشفع لها تراثها الثر الكبير الذي متى ما وضع بازاء النتاج الادبي والفكري الغربي غلبه هذا في كشوف ما يستقر اليوم بين ايدينا من نظريات أدبية كثيرة وكبيرة مصحوبة بمناهج نقدية توصيفية وإجرائية ضخمة كدراسة النصوص الابداعية المتنوعة.

ومعنى ما نقول الدفع بمبدأ المثاقفة إلى الامام لنحوله باتجاه تعشيق فكري كبير بين الحضارة العربية وما انتجه الغرب منذ عصور الاغريق وأرسطو البادئ بطرح مفاهيم عن الكون الأدبي بعامة واذا آمنا أن التراث الغربي النقدي قادر على فتح حوار بناء مع المدونة الفكرية النقدية الغربية فاننا سنصل إلى نتيجة ايجابية لاتضع الفكر العربي في القائمة التالية أو التابعة أو الهاضمة والمستهلكة فقط لما انتجه الغرب وانما لتقف بموازاة الجهد العظيم الذي تغرف منه الإنسانية منذ طفولتها وحتى الالفية الثالثة اليوم.

ويبدو تساؤلنا الآن نوعا من الاجترار إذ نحاول أن نتعرف إلى النسب المئوية التي حققتها الثقافة النقدية العربية بازاء المناهج والنظريات النقدية ونتوغل فنتساءل عن احتمالات وجود مثل تلك النسب الشاهدة على ثقافة نقدية عربية معاصرة، واذا تمكنا من تعيين نماذج خاصة ومنمازة تقرأ نظرية النقد الأدبي بتقديم عربي خالص، فهل معنى ذلك أننا تمكنا من اختراق الجدار الثقافي الغربي الصلب لنحقق فيه مكاسب نقدية لانموذج عربي ونظرية نحتج بها، وإلا فليس من اختراق منظور أو تثاقف ضروري وملح وانما محض محاولة جيدة ومتكررة لهضم النظرية النقدية الغربية وتوصيفها دراسة وتحليلا ، تنظيرا وتطبيقا.

وليس فيما نقول من سلبية وقتامة تسجل عدم كفاءة للعقل العربي لاتمكنه من كسر ربقة الرهاب الغربي الثقافي والتطلع الدائم اليه، وانما الرغبة جلية في دفع عجلة النقد الأدبي العربي إلى الامام ليكون له مكان في حركية النقد العالمي وركب النظريات النقدية.

وتلك مسالة تتوقف على حل إشكاليات كثيرة منها درجة ومستوى فهم النظرية النقدية في محاضنها وهضمها واستيعابها على المستويين النظري والاجرائي وتخليص المحاولات العربية من العمل الفردي الخاص بصاحبه، بمعنى أن لاتكون المحاولات النقدية العربية مسماة باصحابها وغاية ما تطرحه أنها تعيد تفسير المنهج النقدي كما تم تسلمه ومن ثم فحصه اجرائيا على قاعدة بيانات هائلة من النصوص العربية الأدبية شعرا ونثرا، الأمر الذي يعرض تلك المحاولات للتقاطع فيما بينها لأنها تتبع مدى فهم كل ناقد وقدرته على مناقشة النظرية ومحاولته في البدء بالتنظير للمنظر لقصد الظفر بالسبق في ذلك والإسراع إلى الدعوة للتأصيل من منطلق ان الجديد الذي نبحث عنه عربيا محفوظ في طيات الكتب النقدية القديمة وممهور باسماء أصحابها وهذا منطق غير سليم ودقيق بالطبع، فالقدرة الفكرية النقدية العربية في التاصيل وانتاج منهج نقدي موجود لكنها تستلزم ظروفا صحية لانجازها ولعل العمل الجماعي المتواتر والمتعاضد خطوة اولى للظفر بحركة جادة قادرة على صياغة فكر نقدي عربي معاصر.

ويبقى هذا الامر محاطا بحواف خطرة لايستطيع الناقد العربي تخطيها أو قصها ومن ثم معالجتها وتكمن تلك الحوافي الناتئة في ان المناهج النقدية العالمية ليست وليدة فكر نقدي ادبي وحسب انما هي حلقة في منظومة كونية أشمل، فمع مطلع القرن الماضي بدأ الشكلانيون الروس يضعون بصمات النهج العالمي الجديد في قراءة النص وينظرون لذلك ومن ثم اخذت التحولات الجديدة في علوم اللسانيات تصطدم بواقع كوني أشمل فالحرب الأولى والثانية التي عانى منها العالم ترك بصمات ثابتة فوق الحركة الثقافية في اللسانيات والشعرية ومع ظهور النقد الجديد الانغلو – ساكسوني كذلك ، فاذا ربطنا الشعرية – مثلا – بجذورها لنعود بها إلى ارسطو في فن الشعر والتراجيديا والملحمة هل معنى ذلك انها شعرية الحداثة وما بعد الحداثة وان الوصل سلم أو اننا سنجد صدى ارسطو في مانكتب اليوم ونقرأ ، لايمكن قياس الامر هكذا.

ولتجنب مغالطات مماثلة يجب أن نخلص الفكر النقدي العربي من عقده التي يعيش بها واستنزافه المتواصل للتراث بدعوى امتداد أصول النظرية النقدية المعاصرة اليه وهذا امر غير صحيح وعلى مستوى الوقائع فان بروكر يقدم لتأريخ الحداثة وما بعد الحداثة قائلا " إن كلا من الحداثة وما بعد الحداثة يعد ظاهرة تميز الثقافة الانكلو أميركية والاوربية في القرن العشرين في المقام الأول ولو أنها ترتبط بقدر من العلاقات المتغيرة بتلك الثقافة " [١].

ولاجله فان النقلة النوعية في قراءة النص الأدبي أخذت تكبر وتتغير تدريجيا مع الحداثة التي افرزت النظرية البنائية منتصف القرن الماضي صعودا إلى التفكيكية والاسلوبيات والسيميائيات وتنضم اليها النماذج المرافقة للمنهج التحليلي النصي كجمالية التلقي والتناص والنقد الثقافي والتداولية والتأويلية وكل ذا وغيره عرف هويته مع عشرينيات القرن الماضي صعودا إلى الألفية الثالثة التي حاكمت كثيرا من النقود الحداثية لتستلم نظريات ما بعد الحداثة دفة قيادة الفكر النقدي العالمي وتستجيب لما ترشحه وتختاره العولمة التي احتوت كل أشكال الفكر الثقافي والنقدي وطوتها في هيمنة عالمية كبرى، مثلما ان الانفلات الفكري الذي تسببت في احداثه ما بعد الحداثة ومقولاتها ومنذ أن بدأت الأصوات تطالب بتحطيم المرجعيات الكبرى، نؤكد ان ذلك كله تحرك باتجاهات متوازية تجمعها حزمة واحدة ونؤكد توازي تلك الخطوط من منطلق انها متلاحقة وغير متقاطعة.

ولو أردنا الآن أن نتحول باتجاه المشهد النقدي العربي اليوم وأن نبدأ باستنطاق نظرية عربية معاصرة وأن نفتح الباب على كشوف الفكر النقدي لو فعلنا ذلك لحملنا المفكر والناقد العربي فوق ما يحتمل كأن نطالبه بالتفتيش عن رؤية عربية حداثية تغربل في

مصنفاتها منهجا واحدا واضحا لكن الأمر أصعب من طرح الفرضيات ولربما حمدنا للنظريات النقدية العالمية صنيعها تجاه ما نكتب ولقلنا اننا ندين لها بكل ما يجود به الفكر النقدي العربي والحركة التأريخية النقدية برمتها تقوم جوهريا على ساقين لم يكن لأحدهما غنى عن الأخرى، فاذا قامت الحداثة وفرضت وجودها مع منتصف القرن ١٩ صعودا إلى منتصف القرن العشرين فان ما بعد الحداثة سارت نحو تقويض الحداثة نظريات ومناهج وسياسة عمل وهدمت معاولها ركائز الحداثة مع مكتسباتها وبقوة درج الأمر على محاكمة شؤون الحداثة وبعثرة أوراقها منذ اللسانيات وبعد ان بزغ ضوء البنائية والسيميائيات.

وهكذا فان التحول شامل وطوفانه امتد على مساحات كبيرة من نظريات الحداثة فيتحرك لينشر ظلة فوق جميع مجالات الحياة ويقطع مسار الحداثة ويوقف عجلتها العظيمة بتدمير ادائها الضخم وهيمنتها المماثلة على الفكر العالمي بتتابع متلاحق لنظريات ما بعد الحداثة التي تبدأ عملها بتكفير اللسانيات وعمل سوسير عندما رصد مفهومي الدال والمدلول واحاطهما بعناية تأسيسية للغة بمفاهيم جديدة، يلحق ذلك الانقلاب على معطيات البنائية لغاية واضحة، إذ ان تفسير التطورات المختلفة التي يشهدها العالم تباعا الاجتماعية والعلمية والثقافية بوساطة المرجعيات والسرديات الكبرى لم يعد مقبولا في فلسفة ما بعد الحداثة والالتزام الصارم بالهوية والوحدة والمركزية واللوغوس والصوت والنظام والانسجام والانتظام والبنية وما نعدده من كل ذا نسعى لتحطيمه واحلال ما يتضاد معه تماما فتنطلق نظريات ما بعد الحداثة محملة بفلسفة انعدام الهوية والدعوة للعدمية والتفكيك والتشتت ورفض المركز وتحطيم المقولات الكبرى ورفضها واللامعنى رافضة مبادئ كالجوهر والقيمة.

واهم ما دعت ما بعد الحداثة لتحطيمه الثنائيات لذلك ذكرنا سوسير فقد ردت ثنائية الدال والمدلول والصوت والمعنى ورفض الجوهر والحقيقة فلا حقائق ثابتة عند ما بعد الحداثة ولا معنى يوحد البنى ويضمها، وفي مقابل ايمان السيميائيات بالكلية والنظام والنماذج العليا الثابتة قوضت ما بعد الحداثة انطلاقا من سبعينيات القرن الماضي كل ذا، والتفكيكية – فيما نجد – كانت أبا روحيا مقدسا لهذا الانقلاب الكوني المعرفي لان التفكيكية مثلت الانقداحة التي عصفت باركان الحداثة وزعزعتها في موازاة ذلك جاء التشكيك بكل اليقينيات والسلطات فلا سلطة فوقية.

وقد تمكنت فلسفة الفوضى والعدمية هذه من انجاز مناهج نقدية خاصة بالنص الأدبي شعرا ونثرا فصنعت لها استراتيجية عمل فأعادت القدرة إلى السياق ليعمل ثانية والمؤلف/ الإنسان الذي دعت الحداثة إلى قتله و/أو تغييبه قسرا واقصائه وآمنت بمشاركة الاحالات

الاجتماعية والتاريخية والسياسية في تكوين ملامح النصوص وما تنتجه ولم تبعده عن صاحبه.

وتعمقت نظريات ما بعد الحداثة في النص الابداعي لتؤهل منطقة نصوصية تستجيب لكل القراءات وتسمح لها بالانفتاح على كل السياقات القبلية والداخلية الضمنية وليس من تعال منهجي أو ارتباط خاص بالواقع أو ارشفته فالصورة والنص هما غايتان لمشاريع ما بعد الحداثة.

ويجيء كل ذا منسجما مع تطور النظام الرأسمالي العالمي في الغرب وبسرعة هائلة، فمن المنطقي اذن أن يتم التشكيك في اليقينيات ومهاجمة كل المؤسسات ذات الثوابت الراسخة ونحصل من دريدا وتفكيكيته على شكوك في ميتافيزيقا الغرب التي ارتدت بتهديمها إلى زمن افلاطون.

ولاتشك في أن منظومة الحداثة لم يعد بمقدورها منذ خمسينيات القرن الماضي أن تتسع أو تضيف إلى عملها وإلا لما وجدت نظريات ما بعد الحداثة منفذا اتسعت به، فضلا عن أن تعنت الحداثة في مناهجها النقدية الأدبية خاصة كان سببا في بدء البحث عن بدائل مرافقة للتحولات العالمية المتلاحقة، فأخذ رواد ما بعد الحداثة وهو المفكر الفرنسي ليوتار يتطرف في نهجه لينكر الحقيقة والمركز والتمركز حول العقل والبنية والانغلاق ويطرح مفاهيم أخرى تتضح مع نظريات النقد الأدبي والحركة الثقافية عموما وحقول المعرفة الأخرى ككل ، من مثل الحقيقة العائمة والعناية بالافتراضات وعوالمها والمعنى المغيب وانكار التعالي الذي يمارسه المنهج والنظرية إذ يخنقان النصوص لأن الالتزام بصرامة المعيار والقاعدة لاتخدم المثقف والثقافة والفكر النقدي عموما في شيء وإن دريدا – مثلا – الذي يرفض أن يكون له منهج نقدي ثابت تماشيا مع الفكر ما بعد الحداثي يضعنا أمام تساؤل مبدئي ، فما الذي كشفت عنه نظريات الحداثة وما بعد الحداثة في مجال النقد النصي الأوسي وما مدى فهم الناقد العربي لتلك المناهج وكيف تعاطى أو تعامل معها، هل ثمة تنافذ جاد بين الفكر الغربي والعربي نبيح للمثاقفة أن تصنع شيئا ايجابيا للنقد النصي الادبي، ومن ثم فهل بامكاننا أن نشهد للناقد العربي انه لم يفهم النظرية والمنهج فحسب بالتتابع الذي وضحناه وانما تمكن من البدء بوضع لمسات خاصة تشهد له.

وفي ظل تصاعد وتيرة ولادة المنهج النقدي يقودنا الحديث إلى المناهج النصية التي ظهرت في سني ما بعد الحداثة بدءا بالتفكيكية صعودا لسيميائيات التأويل والنقد البيئي والنقد العرقي والنقد النسوي وجماليات التلقي والتناصية والسرديات والأسلوبيات والنقد الثقافي

وسوى ذلك وهذه كلها مناهج نصوصية تصنع توليفة اجرائية حال التطبيق بين تحليل وتفسير وشرح وفلسفاتها قائمة على ما قدمته ايديولوجيا ما بعد الحداثة فتجعل النص فضاءا مفتوحا قابلا لمزيد من القراءات باعادة انتاج يسهم فيها المتلقي ويعيد تكوين النص الأدبي متجاوزة الكفاءة اللغوية والقواعدية والمعيارية التي يخضع لها المنهاج النقدي والمتابع لتطورات الفكر الغربي عامة والنقدي منه تحديدا يدرك جيدا أن المشهد النقدي كان يتجه منذ نهاية الحرب الثانية نحو استراتيجيات التفكيك بوصفها " نقطة الذروة المنطقية التي كانت تشير كل التطورات اليها " (٢).

وقد تفاوت موقف المثقف العربي والناقد العربي تجاه هذه المناهج بين قبول ورفض أو محاور يقظ ينتقي بعناية فعاليات النظرية ويلمس ركائزها مطمئنا إلى مالديه، فيقدم جهدا خاصا به ولايضيره أن يتردد صدى المنهج النقدي كما تم استيراده في ذلك الجهد والانتاج والنقدي النظري منه خاصة، وجهود النقاد العرب كبيرة في مجال النظرية والاجراء معا، بعض منها كانت ترتدي رداءا متطرفا في رفض التعاطي مع النظرية النقدية العالمية كما نقرأ لعبد العزيز حمودة – مثلا – فوفقا لرؤية هذا الناقد فان المد البنيوي الذي بدأ ينحل و/أو يتحلل مع تباشير الفوضى الديردية وبدء ملامح ما بعد حداثية بالظهور هذا المد ما إن تراجع حتى " فتحت أبوب الجحيم على مصاريعها وكأن فترة التأجيل اثناء سنوات المد البنيوي زادت في عمليات التفاعل والغليان داخل القمقم الثقافي وبإزاحة الغطاء أخيرا بمحاضرة جاك دريدا انطلق المارد الفوضوي بلا قيود يعبث في النصوص الادبية فسادا (٣).

إن رؤية كهذا محملة بحس ساخر لاتكون ناضجة كفاية لقراءة مد عظيم لنظريات النقد الحداثية وما بعد الحداثية مثلما انها قراءة عجولة ترافقها نية مسبقة في الناقد لتقزيم المنتج الغربي بيد انه أمر لايعلى من شأن الناقد العربي أن يكون خطابة الانتقادي فجا على هذا النحو ، والفائض من كشوف الحداثة ومقتربات آلتها الاجرائية لفحص النص الأدبي تحول تلقائيا تجاه ميدان ما بعد الحداثة التي دقت أطنابها بقوة مستفيدة من النهج الاخطر والمسيطر عالميا، أي الرأسمالية العالمية وعولمة الفكر الثقافي بله النقدي والأدبي في ركبه.

وقد استوقفنا اسلوب حمودة في محاكمة يفترضها ويجريها بعبارات يصفه فيها بأنه متهم وسؤول عن تيه كبير تعمد فيه سرقة النص الأدبي وتسقيط مبادئ سوسير حول اصغر وحدة لغوية ومعادلته التي صاغها في علاقة الدال بالمدلول المكونة علامة دالة، فدريدا سرق سلطة النص ابتداء بانكاره على سوسير الزامه اللغة بعلاقة عفوية تتمتع بها العلاقة اللغوية فـــ " الارتباط في النصف الأول من القرن العشرين وحتى منتصف الستينيات على وجه التحديد

لايقاس بالفوضى الكاملة التي سيطرت على المشهد النقدي في العقود التالية خاصة عند محطتي التلقي والتفكيك وبعد أن تحولت النظرية إلى غول مرعب مخيف " [٤] والتيه الذي يريده حمودة هو " تيه النظرية التي تتحدى التعريف وترفض علامات الطريق الإرشادية فتسقطها واحدة وراء الأخرى في تعارضات لانهائية " [٥].

إن منطقاً نقدياً كهذا ما يحمد فيه لصاحبه أنه منغلق على وجهة نظره وقراءته الخاصة مثلما اننا نجد انه حري بتجميد حركية مناقشة النظريات النقدية اذا ما وجدت اصداءاً مرحبة بيد ان البيت النقدي العربي غير معني بتجميع الأصوات الناقدة والقارئة للنظرية الحداثية بطريقة العمل الجماعي والمتفاعل مع ما ينجزه الناقد المعاصر عربياً ولذلك تظل قراءات النقاد العرب على كثرتها تعاني من التشرذم والتقاطع.

تتجمّع النظريات النقدية المعاصرة حول قطبيات منهجية تنفخ على الانموذج التحليلي النصي فإذا شاءت تلك المناهج أن تقوم بعمل المغناطيس فتلتقط كل ما يقع خارج النص فلها ما تشاء وفقاً لشرائط المنهج النصي، وثمة تحاور ناضج اصطنعه المنطق النقدي المعاصر بين المناهج الحداثية وما بعد الحداثية يبدأ بإقرار ابتعاد ما بعد الحداثة تأريخياً عن الحداثة ومحاكمة الأوهام الإيديولوجية للغرب وتحطيم نظرية الأجناس الأدبية وهوية كل جنس.

وقد أقر ليوتار بأن التحليل النقدي يجب أن يمضي ضارباً بكل المعايير ومهمشاً ثوابتها وإن اعتناء التحليل بالنص هو الكفيل بالكشف عن مبادئ النص من دون الاتكاء على معايير قبلية، وتأسيساً على ذلك سيكون النص الأدبي شعراً ونثراً نظام كبير تندرج فيه معظم العلوم والمعارف الإنسانية، أي انه متصل بجهاز تواصلي وابلاغي سابق وليس غايته النظام اللساني اللغوي الذي يشكل علاقاته الظاهرة، ولأجل ذا يعدُّ عبد السلام المسدّ القارئ مسؤولاً رئيساً عن النص، فالمتلقي هو " الموقّع الحقيقي على شهادة حياة النص لأنه هو الذي يحكم على ما يتلقاه من أي أديب بأنه أدب فهو الذي يضفي عليه بالتالي السمة الابداعية"[٦].

ويؤكد المسدي أن النقد الأدبي حاضر وبقوة لكنه مأزوم دائماً بيد إنّه يربط ازمة النقد بالابداع قائلاً : " هناك أزمة يشهدها الواقع العربي في النقد وهي أزمة حادة ... واذا أراد النقد العربي أن يشرحها ويفكر في مكوناتها يجب عليه أن يعود أولاً إلى أزمة الابداع ذاته وإن هناك في مجال النقد الأدبي ضياع وتشتت بين ارتباط التراث واندفاع الحداثة وانها أزمةً معقدة تزداد صعبة مع التطور العالمي السريع في كافة المجالات " [٧].

لايلخص رأي المسدي واقع النقد العربي كله على الرغم من انّ وجهة نظره منطقية – نسبياً – فيما نرى وفي جزئها الثاني وبقدر تعلق الأمر بمناقشة العلاقة بين التراث والحداثة

يبدو المسدي محقاً فيما يخطئ بتقدير أزمة الإبداع عندما يقرن ازمة النقد العربي بها، فنحن نعاني من اشكالية أكبر عندما نقف بازاء نتاج ابداعي هائل يصغر في حضوره النشاط النقدي الناتج عن تأصيل عربي لنظرية معاصرة، لذلك نؤكد مجدداً أن الناقد العربي مجدّ بيد انه يعاني من الفردية والخصوصية، ولا يبلور تصوراً مستقبلياً مقترحاً ومجدياً وتصور المسدي هذا يكاد يلمس من جانب آخر حقيقة المدوّنة النقدية العربية فسلبياتها وايجابياتها تراوح في امكنة ثابتة دوماً ولو قمنا بغربلة المنتج النقدي العربي المعاصر جُلّه أو اكثره لترشح لدينا تفاوت عربي عربي بين النظرية المستوردة وكيفيات استيعابها وقد لاحظنا بسبيل ذلك أن فلسفات النظرية النقدية جاءت ارادتها متوافقة مع عقود من التحولات الشاملة التي غطت عالم الغرب وعندما وصلتنا كانت جملة من منشورات متقطعة ومتباعدة وتعمد على أمور كثيرة منها ترجمة الكتب النقدية والتعريف بالنظرية والتوغل فيها لاستنطاق جذورها، لذلك في حين بدأ زحف نظريات ما بعد الحداثة في مواطنها بدأ النقاد العرب يستلهمون من اللسانيات والبنائية الافكار والمبادئ ويتبنون حداثتها مبهورين بعوالم الحداثة وقوة طرحها ونظرياتها وفي الوقت الذي صارت اجزاء الحداثة إلى تحول وبدأت انشطتها تخفت في اوربا ودول العالم الاخرى كان لنا وقفة مغايرة معها واستغرق عقود كثيرة فنشطت في العالم العربي قراءات بنائية مأخوذة بالمنجز الأممي للنظرية البنائية في الوقت الذي كانت الأخيرة تعاني في الأفول في محاضنها الاصلية.

٢- الناقد العربي والنظرية النقدية: مشروع لن يكتمل:

يطل المشهد النقدي العربي المعاصر متشذراً في تعدد الافكار وتنوع مواقف النقاد تجاه النظرية وكيفية الاستجابة لها وقد ذكرنا أنها حالة ايجابية أن نكون بإزاء منجز نقدي عربي مُتابع وذي حيوية وحرية في تعاطيه مع النظرية والمنهج وفي الوقت ذاته فان التنوع المنظور بإمكانه ان يرصد سلبيات القراءة خاصة اذا وضعنا قراءات وتحليلات النقاد العرب بإزاء بعضها، أي نعرضها على بعض لنمسك بنتائج واحدة ومقاربة دقيقة لما يحصل في البيت العربي النقدي، ولعل من الدعاوى المهمة والخطرة على الفكر العربي أن يتجه الناقد إلى الترحيب الزائد بالنظرية النقدية المعاصرة وتبنّيها ليتجه لاحقاً إلى النكوص عنها مؤثراً منهجاً آخر وبذات الانبهار والتسرع وهذه آفة عربية خالصة في تقبل ما لدى الآخر والتعاطي معه، بيد أن الناقد العربي في الأحوال كافة يقدم للمتلقي قراءته الخاصة ودونما حيادية كذلك، بمعنى

أننا نجد ناقداً عربياً يبالغ في حالتيه الرفض والقبول مع تقديم دوافع وتفسيرات جادة تعزز موقفه النقدي.

وقد تصلُ سورةُ التبني للنظرية النقدية إلى حد تغليط ومهاجمة الرأي المضاد ولغاية تحليلية آثرنا انتقاء تجربة الناقد عبد الله الغذامي، ذلك أن مشروعه النقدي يمثل لدينا انموذجاً للارتباك الذي أوقع الناقد العربي نفسه فيه كما انه يكشف عن طبيعة حركية النقود الحداثية وما بعد الحداثية في فكر المنظر العربي ومدى نجاحه في التعالم مع النظرية والافادة منها.

والغذامي شاهد على نوع من التعصب النقدي غير المسوّغ وإنه واحد من أهم النقاد العرب الذين ربطوا افكارهم وتحليلاتهم بالنقد الألسني وايمانه بفلسفة اللسانيات ودورها وأهميتها في مقاربة المنهج النقدي النصي واضحة في كتبه، إذ يؤكد أن كتاباته تنتمي إلى اللسانيات فيما يهاجم معارضي اللسانية، فنقرأ له : " أما الالسنيون وأنا منهم فهم فئة قليلة دخلت بهم الألسنية ... ولي شرف الانضواء تحت هذه المظلة الجديدة وعنها وبها كتبت كتابي الخطيئة والتفكير " (٨).

وينتقد الغذامي من ينتهجون نهجاً نقدياً مغايراً بسبب أن القضية من أساسها حضارية فالمعارضون لايمكلون قسطاً ثقافياً كافياً (٩)، كما انّ " معارضي التجديد يقتصرون على دراسة العلوم القديمة ويكتفون بها " (١٠).

يعزز هذا التوجه عند الغذامي قناعتنا في أن النظرية النقدية المعاصرة قد أخّرت حضور التنظير العربي بالمقابل وعطّلت القدرة على تأصيل المنهج النقدي العربي المعاصر فقد أوقعت نظريات الحداثة وما بعدها المنظّر العربي في ارتباك كبير ولم يتغير الأمر منذ أن تلقفت المدوّنة النقدية العربية الفكر الغربي بمزيد من القناعة وننقل الأمر باتجاه الغذامي الذي يقوده مسار تفكيره النقدي إلى الوقوع في شرك عدم الاستقرار ومن ثم ليس من قدرة منتظرة تعمل على تأصيل نقدي حداثوي يمكننا من الظفر بمشروع نقدي عربي وهذا ذاته وبسبيل البحث عنه قاد النقاد العرب اجمالاً إلى الدخول في سُوْرة التسابق إلى تقديم كشوف نظرية غير ناضجة فتتأكد لنا من خلال أعمالهم المفردة حقيقة الشتات المزدوج النظري والعملي وتكريس حالة التبعية للفكر النقدي العالمي والانطلاق منه والعودة اليه بحجة الابتعاد عن هيمنته، فتتكسّر حالة المثاقفة بله الرغبة فيها فوق صلابة النظرية التي تلتصق بمحاضنها مبتعدة بهم عن مناطق أخرى في العالم.

والغذامي كان أكثر صراحة في سرعة احتضان المنهج وفهمه واستيعابه للتطرف في تحقيقه تطبيقاً ، على الرغم من انّ الغذامي أكثر من تغليط منتقدي المناهج اللسانية – تحديداً – وبقي يعد الجديد من النقود راس الهرم بقصد تحريك المجموع بحسب الرغبة النقدية الذاتية وهذا الاتجاه في العمل لايصنع حقيقة عربية نقدية معاصرة أو يقدم فكراً نقدياً بهوية عربية ناضجة.

ونسوق مع الغذامي امثولة للتبني الكلي للنقود الحداثية، هذا التبني الذي يقود إلى التجزئي في العمل، فالناقد يؤرجح مشاريعه النقدية أو كتاباته لمزيد من الدقة بين الثبات والتحول وعلى سعة ما كتب ، ففي حين يوثق ولاءه للسانيات وشرائطها في تحليل النصوص الأدبية فانه سيتبنى لاحقاً موقفاً آخر فيلج مجال النقد الثقافي وهذا جزء من منظومة ما بعد الحداثة؟ فيهدم الغذامي بمعدل كبير ركائز النقد اللساني الذي حاول ان يصنع هامشاً له يوسم بالناقد العربي، بيد أن الغذامي واحد من نقاد كثر لم يملكوا إلاّ السير في هذه الطرق المتعرجة والوعرة محاولين تعبيدها ليسهل السير فيها ولغاية مستقبلية أكيدة تفيد المنظومة النقدية العربية، بمعنى أننا نريد تبرئة الغذامي والناقد العربي عموماً من فكرة اللهاث وراء النظرية العالمية فنفترض ان لدينا البذار وهذه حالة ايجابية لكنها تبقى محض بذرة إن لم تغرس في منبت صالح لها وان بوسعنا الافادة من النظريات النقدية لكن ليس بطريق لمّ شتات المنهج عبر تركيب مناهج نصيّة كثيرة، مناهج تتمتع في بيئاتها بفورة في النضج التنظيري لها ولاتعاني من ركود ظل يلازم النقد العربي منذ عقود، بل منذ أكثر من نصف قرن، أي منذ أن بدأنا نتابع التطورات النقدية العالمية مدفوعة بولع الناقد العربي في أن يكون شاهداً عليها ومبشراً بما سيحضى به الخطاب النقدي المعاصر.

وتبرز مسالة أخرى ضرورية لفهم وقراءة متكاملة للمنهج النقدي فالأخير له نوافذ كثيرة علمية ومعرفية مرافقة ويطل عليها وهذه المسألة تجعلنا نفهم سبباً من اسباب مراوحة الناقد العربي بين أكثر من منهج بمحاولة مرافقة منه لتفسير وشرح أهمية كل منهج وتسويقه عربياً من دون أن تتحصل نتائج جيدة من كل داء فتبقى الإضافات فردية ويسيرة.

ويرتب الغذامي أوراقه بعد مرحلة الخطيئة والتكفير واللسانيات لينخرط في مجال المشتغلين بالنقد الثقافي فيوسع اهتمامه ليكتب عن الهوية والجد والمرأة ويثير فكرة الانساق العربية بطريقة متطرفة يدعو فيها إلى اعادة قراءة ما غُيِّب ثقافياً ولكن بطريقة مغلوطة تريد

تفسير الأنساق الباطنة في المتن الثقافي العربي جاعلاً له مُتكأً لامعاً حيث النظر في فكرة / مبدأ الفحولة والانوثة راغباً في اثارة حساسيتها بعد تسقيط كل مبدأ متصل بها إلى حدّ الوصول إلى المتن الادبي العربي والثقافي الإنساني واسقاطه على المشهد الأدبي العربي المعاصر ويخرج بنتائج يقررها هو إذ يصدر قراره بتقزيم الارث الأدبي العربي بدعوى قراءة ذلك الارث وفقاً لقوانين المنهج النقدي اليوم، ومن ثم ليس من شخصية عربية ثقافية أو أدبية سوية وعليه فالحداثة العربية كما يصفها الغذامي حداثة رجعية وإنّ أبا تمام وادونيسو المتنبي ونزار قباني – مثلاً – أمثلة شاخصة على الخلل النسقي الرجعي.

يقول الغذامي : و " بما أن النقد الأدبي غير مؤهل لكشف هذا الخلل الثقافي فقد كانت دعوتي باعلان موت النقد الأدبي واحلال النقد الثقافي في مكانه .. وليس القصد هو الغاء المنجز النقدي الأدبي وانما الهدف هو في تحويل الاداة النقدية من أداة في قراءة الجمالي الخالص وتبريره وتسويقه بغض النظر عن عيوبه النسقية إلى أداة في نقد الخطاب وكشف أنساقه وهذا يقتضي اجراء تحويل في المنظومة النسقية " [١١] ، ولم يحاول الغذامي أن يمسك عصاه باتزان فيجرد في كتابته اللاحقة اللسانيات والتفكيكية أدواته النقدية منها ويقدّم رؤيته الجديدة المنحازة إلى المهمّش، فالمرأة كما يرى كائن محوري همّشته انساق الشخصية الذكورية العربية ومحت كينونته ومن ثم فالرجل هو المحتفى به دوماً وهو قائد دفة الثقافة واللغة هوية وأداة انطلاقا من مبدأ الفحولة.

إن تلك المضمرات عند الغذامي بحاجة إلى اعادة قراءة لتقديمها ثانية بعد تحقيق حضور المرأة بوصفها كينونة ماثلة بإزاء الرجل/ الفحل لا تابعة له ولأجله ينتقي الغذامي نازك الملائكة التي كسرت الفهم الذكوري المهيمن على الذات العربية بانتاج قصيدة التفعيلة ذات الوصف المذكور [١٢] – بحسب تعبيره – ولربما كانت للغذامي اسبابه المنطقية في تبني جزء من نقود ما بعد الحداثة وطرق باب خطاب التأنيث ودور الأنثى مثقفة في مجتمع جرت أعرافه على اقصائها وتغييب وجودها الثقافي والإنساني.

إن مشروع التأنيث واعادة قراءة المرأة العربية المبدعة للاحتفاء بها وتكريمها جاء جزءاً من ادخال خطاب ما بعد الحداثة في مدّونة الناقد العربي واشتغاله على هذا الأمر تفسيراً لمفاهيم ضالة واعادة تصحيح لمسار الفكر الثقافي العربي وقد تطوع الغذامي في مشروع (التأنيث والتفحيل) لايقاف قمع المرأة وعلاقتها بالأبوة الراسخة جذرياً في اللاوعي الجمعي

الثقافي وغير ظاهرة أو مفسّرة، وقد كرس الغذامي من كتبه كتاب (المرأة واللغة) و(الكتابة ضد الكتابة) وسواها لقضية التأنيث في ضوء مقاربة ثقافية قائمة على مجموعة من التصورات الذهنية والفلسفية ذات طابع شعبي أو اجتماعي، كتفكيك أنساق نظرية صراع الحضارات لهينغتون أو فعاليات ألف ليلة وليلة المعبأة بالآف الأنساق الأدبية والجمالية والفنية والدينية المضمرة ويجري ذلك في ضوء الافادة من كم كبير من النظريات الأدبية والنقدية تمثلاً واستيعاباً والتحرك داخل النص ذهنياً وفلسفياً لمسك طبائعة ومن ثم نتائج ذلك.

وما نريده الآن أن لانجانب الصواب، فالغذامي بوصفه ناقداً عربياً ذا بصمة لاتخفى قد وضعنا أمام توزيع ملائم لمسار المفكر العربي / الناقد الأدبي تحديداً ومن ناحية صلة هذا الناقد بالمناهج النقدية الحداثية وما بعد الحداثية فنكون بإزاء الآتي:

١- يبرز انحياز كلي للنظرية النقدية الغربية وترحيب تام بها يؤدي إلى تعرج حركة الناقد في عدة اتجاهات، فينتقل بين أكثر من منهج نقدي على سبيل التجربة زائداً الرغبة في الفهم فالتجريب محصلة منطقية لا التاصيل وتطوير الأدوات النقدية الفاحصة لمنهج بعينه وإن نتج عن ذلك مشروع فردي خاص بصاحبه فانه لن يتمدد في المشغل النقدي العربي فيبقى رهين فكر الناقد وطرحه فحسب ويمثله لدينا عبد الله الغذامي وعبد السلام المسدي.

٢- محاولة للجمع بين عدة مناهج بعد قبولها والتعامل مع هذا القبول بطريقة متدرجة فلا يبدو الناقد قافزاً في عمله أو متراجعاً عما بدأه واختاره ويعني هذا القبول من نقادنا العرب أننا سنظل نبحث عن هوية نقدية عربية ذات سمت جماعي يسعى للتأصيل بيد أن الأمر في محصلته ايجابي من حيث استيعاب المنهج الغربي وسلامة التعامل معه ويبرز محمد مفتاح وصلاح فضل على رأس من نقدّهم أشهر من انسجم عمله مع فكر الآخر النقدي دونما نكوص أو ابتهاج زائد ذي مردود سلبي أو يؤثر سلباً في مشروع الناقد الخاص به.

٣- رفض غير مسوغ للنظرية النقدية الغربية انطلاقاً من رفض الانفتاح على ثقافة الآخر النقدية ودونما عمل مقابل يرغم المنظّر الغربي على قبول ما ينتج المثقف العربي وتحويل الأمر باتجاه مغاير ليبق محاولات التأصيل جذوة متوقدة وهذا ما

يمنحها حيويتها فحسب، مثلما أن الرفض ذاته داخل في دائرة الارتباك الذي تحدثنا عنه وضيق الرؤية وعلى اتساع خارطة النظرية النقدية.

والانزواء الذي نقصد نمثّل له بعبد العزيز حمودة ، فما أثاره في قراءاته لنظريات الحداثة وما بعد الحداثة لايصنف وعياً نقدياً عربياً بل دعوة جديدة إلى التشتت والصوت المفرد في العمل التأسيس النظري، فيما يلفت انتباهنا أن مشاريع الناقد العربي تظل محددة بسقف منخفض ومحدّد من النجاح والانتشار ونعني به سقف البيئة النقدية العربية فيرتطم صداها بجدران سقف القبول والرفض وترتدّ إلى صاحبها وربما تتقاطع مع مشاريع ناقد آخر يفكر لتأسيس نقدي مغاير، لذلك فمن قبيل المفارقات الحادة أن نقول بوجود كينونة نقدية عربية في الوقت الذي تتأرجح المنظومة الفكرية العربية بين محتد ومحتضن ورافض ومنافح وما إلى ذلك، فمن منطلق الخلل التاسيسي أن يسمى كل الجهد النقدي الذي يقف قبالتنا بل مرغمون على التعامل معه، يسمى تيهاً مثلما يذهب إلى ذلك عبد العزيز حمودة الذي فضّل طريقة ساخرة في رفضه وانه أطلق تحذيراته من اللهاث وراء الآخر الغربي في كتابه (المرايا المحدّبة) .. و " علينا نحن العرب في نهاية المطاف وبعد أن دخلنا التيه من غير وعي أو عن وعي كامل ... أن نتقبل في رضى كل مبالغات النظرية وفجاجتها ... في وصف الطبيعة الجنسية للعلاقة بين النص وقارئه "[١٣].

إن الملمح الأبرز في توهج الثقافة النقدية العربية ومن ثم خفوت وهجها حد الانطفاء كامن في خطاب التباين لا التوافق وكثرة الافكار التي إن وضعت على طاولة مستديرة لحققت انموذجاً عربياً يعفينا من الدعوة المتكررة والمترددة منذ قرن إلى التأصيل وإنتاج النظرية العربية المرجوة.

٤- غياب الرغبة في العمل الجماعي فالناقد العربي يكتفي باستيعابه هو للمنهج النقدي وتوافر القدرة لديه على تمثله وتطبيقه ومن ثم يظل مشروعه مفرداً مخنوقاً في قالب منتجة فقط، وهذا الأمر يتسبب دوماً بانتكاسات متوالية للخطاب النقدي العربي، لأن ما تنتجه عقود من السنين مصحوبة بتحولات بنائية شاملة سيكون منجزة الفكري سليماً ومتدرجاً وهذا ما لم يجر لدينا فالأمر عندنا استهلاكي لا

انتاجي، وعند تطبيق المفهوم والنظرية لايخاطب النقاد إلا ذاته غالباً دونما مباركة وعمل جماعي لتطويق المشاريع وصهرها في فكر واحد مشترك متفق عليه.

وعلى وفق معيار افتراضي نقول به فالناقد العربي كان سيدق مسماره في نعش السلوكيات النقدية الخاطئة التي أراد أو أجبر على انتهاجها في حال كبّ مشاريعه في حاضنة عربية مشتركة للخلوص بنتائج واحدة وللتخلص – ايضاً – من مجانية التنظير والاجتهاد الفردي الهائل عربياً والمستند على فعاليات النظرية النقدية الغربية ، غير أن الأمر بعيد عندنا عن توجه مماثل فضلاً عن أنّ البيت النقدي العربي مثقلٌ بالاختلافات بدءاً بتناول المصطلح وكيفية تحديده ومن ثم تحريكه تطبيقاً لتأتي مسالة التفريق بين المنهج والنظرية فانحياز لمنهج بعينه أو رفض آخر فارتباك في قراءة المناهج وفق تسلسلها السليم فانقسام فكر الناقد بين مناهج عدة والقفز عليها وهذه الشبكة المعقدة والمترعة بأنواع النقود والنظريات يحتاج فك اشتباكها إلى عمل دؤوب وجماعي ولعله مستمد بصورة أو بأخرى من المدّونة النقدية العربية الخالصة التي تركها النقد الأدبي القديم بين يدي فاحصيه، هذا اذا ما اريد البحث في التأصيل وملابسات هذا الأمر، في حين أن التجريب الايجابي المثمر فعّال كذلك ومجد في انضاج كشوف عربية معاصرة في النقد الأدبي لولا المزالق الهائلة التي فصّلنا فيها، فاذا لم تجد النظرية والمنهج معاً وطناً فعلياً لهما بفكر عربي ذي نزعة تشاركية فسيظل الموضوع مدار بحث طويل وممتد ولايخرج عن معنى كونه إشكالية تواجه النقد العربي المعاصر بحثاً عن صياغة نظرية نقدية ذات تأسيس فكري وفلسفي ناضح ولها أطر ومقاييس محددة وقابلة للتنفيذ اجرائياً وتستجيب لها كل حركة الابداع العربي شعراً ونثراً.

وهذا الأمر لابد من أن يكشف لاحقاً عن ثقافة وفكر شعب وإرثه الحضاري لأنّه سيمكّنه من دق اعمدة ثابتة وغير معلّقة بهواء النظرية الغربية وتابعة لظروفها وكيفيات انبثاقها.

إن الناقد العربي ما زال في طور التجربة ومحاولة المقاربة للمنهج النقدي فمن المسلّم به إذن أن يتكئ مشغله على معايير قبلية وبحرفية تامة أسست لها نظريات الحداثة وما بعد البنائية ايضاً، وهذا الالتزام تجيئ لمد الفائدة إلى حركة النقد العربي المعاصر من حيث القول بصحة تمتّع الناقد بخصوصية ما ينجزه في مشاريع النقد، أي انها تتحول إلى إضافات خاصة ربما يمكن بلورتها لتؤول افكاراً عامة تجري دراستها على المحور الآني بله التزامني لانضاج

تجربة ذات بناء كلي لاتجزيئي أو جزئي، لذا يصح أن نقول أننا مازلنا في طور التجربة بداعي فتح ما تبقى من مغاليق الأبواب لنطل على فضاء النظرية النقدية ودائماً لأجل الفائدة والتعامل مع معاييرها لنخلص إلى واحد من أمرين: أما الالتزام والأخذ الحرفي لها أو احتواؤها لانضاج اجزائها تطبيقاً فوق مادة إبداعية عربية تتراكم وتتناقص بإزائها المادة التنظيرية فترفض العمل انطلاقاً من روح الجماعة.

وقد صار هذا الأمر عنواناً للمشهد النقدي العربي وذا فلسفة خاصة به تنطلق من الرغبة في اثبات الذات وتفعيل النتاج الفردي وتسقيط الجهد المقابل أو تقزيمه أو العمل بعيداً عنه تماماً فتتلاشى حركية ربط المنظومة النقدية بما يجري حولها من خطابات متنوعة فكرية ودينية واجتماعية وسياسية وثقافية والامساك بقوانينها التي بمقدورها صنع كتاب الفكر النقدي بعلائقه المختلفة وأنْ يتم كل ذا وفقاً لتدرج سليم.

وعليه فانّ البيت النقدي العربي ذو نواقص بناء كثيرة وإن توافرت لبنات أساسية فيه أسهم في انجازها الناقد العربي المعاصر بيد أن النواقص أو الثغرات التي تملأ البيت النقدي العربي تنذر دوماً بمزيد من التصدع إن يبق المنتج النقدي احادياً وليس جماعياً، فيشترك عنصران حيويان في تغييب الصوت الواحد هما :

١- تهميش واضاعة أفكار الانتاج النظري الجماعي.

٢- عدم مراعاة الفروق الجوهرية التي تربط كل مجتمع وثقافة بأصحابها ومن ثم تتلاءم والمشغل الأدبي النقدي والعكس بالعكس فليس اذن من تأصيل جاد يمكننا أن ننتزعه من بطون الكتب والمؤلفات الكثيرة اليوم للنقاد العرب ، فاذا جرى اغناء باحة الأسئلة بطرح المزيد منها فان ردم ثغراتها بالاجابة عنها يظل مثار جدل ويعاني من عدم الدقة، فيما لايجب أن ننسى أن هوية الناقد العربي المنقسمة بين مشرقية ومغربية لها اثر كبير في رسم خارطة القراءة والتنظير النقدي المعاصر لدينا فكيف نتجاوز الجزئية إلى الكلية كواحدة في شروط الانجاز النقدي المتوقع، وكيف نضم المشاريع الناضجة للنقاد العرب لتنتمي أو لتصدر عن مشروع أكبر يبتعد طواعية وإن نسبياً عن الفهم الخاص، وإن كان لابد من ذلك فانّ تجميع المداخل الكثيرة لفهم النظرية النقدية المعاصرة بوسعه أن ينتج فهماً

جماعياً مقبولاً ومتفق عليه، أي ينتج عملاً أكبر توافقياً وحقيقياً يصدر عن نمط ثقافي عربي خالص.

والنظرية كل والمنهج جزء والنظرية غاية والمنهج واسطة تقضي اليها ومن ثم فالنظرية تؤسسها خلفيات كثيرة ببيئة صالحة لها والمنهج حراك عملي متصل بخلفية ثقافية وفكرية مؤسسة والترابط بين الجميع دينامي وذو فعالية كبيرة فالمنهج تطبيق وانجاز اجرائي وعملي لما تقره النظرية التي تنضوي تحت خيمتها مناهج عدة ذات رفقة سليمة.

إنّ نظريات الحداثة قدمت مناهج نصية نقدية عديدة مصحوبة بخطط تأسيس فكرية ملزمة باتباعها وتنفيذ قوانينها وعندما بدأت نظريات ما بعد الحداثة/ بعد البنائية تدق أبواب الفعل الثقافي في العالم جلبت معها مناهجها التي تنفذ معاييرها وضوابطها وبثبات فلسفي وابستمولوجي يحتاج معه الناقد العربي أن يجمع فضلاً عن أساسيات المفهوم والنظرية جميع الزوايا التي يمكن أن تكون متروكة ولم يلتفت اليها في رغبته لاحتواء المناهج النقدية وعلاقاتها النافذة مع كل العلوم التطبيقية والانسانية وأن يرسي نقاط قوة تتمتع بذات الثبات التي صدرت عنه النظرية الأصل/ الأم، فيقرأ اللامرئي ويتمثله في عمله فلا يقفز بين مكوّن وآخر، أو بين فلسفة المنهج وقدرته الاجرائية وما أعدّ له من مقاييس ويضع لها اطاراً بنائياً مستفيداً من المحك المشترك بين النظرية البنائية/ الحداثية والأسلوبية – بسبيل المثال – المنهج التحليلي الذي طرحته فلسفات ما بعد الحداثة.

ويناسبنا في هذا الجزء من قراءتنا أن نعود إلى بيتر بروكر في تفسيره لجدلية الحداثة/ ما بعد الحداثة إذ انهما داخل حركة التأريخ ونحن معهما ونتيجة ذلك ان ننظر إلى ما بعد الحداثة من خلال الحداثة وأن نعاين هذه بوصفها عالقة بكل ما ستجلبه تلك، وإنّ " هناك اتجاهات عديدة لما بعد الحداثة وكذلك للحداثة وإنّ ما بينهما هو الحوار والجدل المتبادل وبناء القواعد الأصولية وهدمها، فليس ثم كيان ثقافي منفرد أو تحول تأريخي مطلق " (١٤).

وخارطة كهذه تمتد فوق عالم الغرب الأمريكي وأوربا مهما تباينت معالم تفاصيلها أو اتفقت سترمي بمنطقنا بعيداً وهذه خلاصة رؤية شاملة متوزعة في اتجاهين منهجي منضبط معياري ذو رغبة في التقنين وآخر مضاد تماماً اتخذ مساره بالضد انسجاماً مع سياقات ثقافية واجتماعية وفكرية وسياسية وفلسفية فميكانزم الأداء محكوم بايديولوجيا النظرية في كيفيات انبثاقها وأهدافها متنوعة والناقد العربي ذو كفاية ثقافية وتحليلية ليعي هذه الحقائق، ومن ثم

يعرض حججه عبر فهم تلك الحقائق وهضمها ليجعل من ذلك الفهم نقطة انطلاق للتأسيس النقدي العربي.

وقد ذكرنا أن محمد مفتاح واحد من ابرز النقاد العرب الذين تعاطوا بيسر ودقة مع النظرية النقدية وتبنى مشروعها عن نضج ليؤسس على وفقه مشروعه الخاص مقدماً قراءته للمشهد النقدي المغربي – تحديداً – ويحرص كاشف عن رغبة الناقد في ايجاد حلقة وصل بين التراث الفكري العربي في بلاد المغرب ودوره بإزاء المدّونة الأدبية في المشرق وإيصال هذا الدور إلى الثقافة النقدية اليوم لتلتحق بدائرتها متسلحاً بقوانين التأويل بقصد تقديم شهادة على أن الصوت الثقافي المغربي ليس صدى واستجابة فحسب لما يجري قبالته في المشهد المشرقي وانما له خطوة انجاز مهمة لم تجعله تابعاً لحركة الأدب والثقافة المشرقية والأمر برمته عائد إلى سياقات كثيرة محكومة بحركة تأريخية قديمة وحتى جغرافية وعرقية لأن من سكان المغرب العربي الكثير من ذوي الأصول البربرية أو ما يسمّون اليوم بالأمازيغ على الضد من نقاء العربية وسكانها في بلاد المشرق ودور العرب المشارقة في قول الشعر وحفظ لغتهم به في حين أن المغرب العربي لم تتوافر له هذه الأجواء فبقي متخلفاً عن ممارسة دور عربي بلغة عربية سليمة.

ولأجله يؤكد محمد مفتاح أن اللغة في المغرب العربي " ليست طبيعية بل مكتسبة بعكس وضع المشرق العربي" [١٥]، ومن نتائج ذلك أن كفتي الميزان لم تكونا متعادلتين بين المشرقين أدباً ، شعراً ونثراً، فالمشرق المعبأ بالشعر بقي بحاجة إلى علم نقدي مكتمل فاحص متفق وفلسفة العصر الأدبية وغزارة المنتج الابداعي الشعري ومحكوم ضرورة برؤية واستراتيجية عمل جمعية هادئة ومندغمة في الواقع الأدبي وبعيدة عن التدجين الذي وقع الناقد العربي القديم في شركة فجلب للقارئ بضعة عشر موضوع مفهرس ومقنّن كشأن علوم البلاغة – على سبيل التمثيل – التي اثارها مفتاح في عمله عندما أعاد قراءة الاستعارة والبيان البلاغي وبذات منهاجه الذي اعتمده، أي بطريقة التسلسل والاضافة وبصورة مرتبة.

أي أننا اذا اردنا الاعتداد بتجربة محمد مفتاح النقدية ووصفنا مشروقة بأنه قيمة رئيسة في انجاز منهج أو مشروع اضافة لبناء نقدي عربي عبر التنظير له، اننا لأجل نتيجة مثلى كهذه لابد من أن نحلل تجربته في تنظيراتها وتحليلاتها المختبرية وانه رتبّها في مؤلفاته وربطها ببعض ومن ميزات عمل مفتاح فرتب الآتي:

١- يحسب لمحمد مفتاح انه لايقطع ما يتوقف عنده من عمله بل يكمله وبذلك فقد تخطى فيما نرى احتمالات الوقوع في سوء التقدير أو الربط غير السليم بين المناهج مراعياً الفروق الزمانية بين انتاج النظرية وحضور المنهج مصحوباً بعوامل انبثاقه ومن بعدها توافر المشهد الثقافي على حواضن جديدة ملائمة لانبثاق وانتاج نظريات أخرى متلوة بمناهجها مرتبة.

وهذا امر منطقي لأن الفرق – مثلا – شاسع مبين الأممية التي دعت اليها البنائية وسعت لتثبيتها وعرضها في كل جانب وتمرير الفكر العالمي ومنتوجاته الإنسانية والعلمية الرياضية عبر قنوات البنية بوصفها وحدة أعلى لقياس فائدة كل علم أو أدب أو نقد تنظيراً وممارسة وعياً وتذوقاً وعلى مستوى أهم ذاتي وموضوعي معاً.

ذلك أن السعي لابتلاع كل ذا ستجمع التفكيكية خلاصته بوصفها نظرية مغايرة مخرِّبة بالقياس إلى ما تقوم البنائية بلملمته وتحرص على توحيده وبين الاقنومين لابد من أن تملك الناقد شروط العلم والقدرة على تفعيل آليته ووسمها بطابعه الخاص/ الذاتي وقد حاول مفتاح أن يمسك هذا المر بدقة واتزان عبر مواكبة التطور النقدي أو متابعة حركته ليحقق المعادلة المطلوبة : ترجمة النظرية ← قراءتها ← استيعابها ← وضعها في مكانها المناسب من حركة النقد والثقافة العربية ودائرة النقد المعاصر عموماً ← تمثّلها ← البدء باعادة كتابتها وفقاً لمقاييس عربية منتجة وفعالة لا مقلّدة.

وبذلك سينضج مشروع خاص، وهذا بعامة ووفقاً لتحليلاتنا السابقة أكبر عيوب النقد العربي المعاصر، انه يعاني من الفردية والتوحد وتملؤه اصوات كثيرة متقاطعة ولاجله.

٢- لن يكفي الوعي المؤسس الذي امتلكه مفتاح في المضي بعيداً لتحقيق طفرة نقدية منتظرة على الرغم من أن المساهمات النقدية العربية المغربية في نقد الفكر الثقافي النقدي والأدبي مساهمات كبيرة وناضجة وفي حقلي الشعريات والسرديات، أي أن أعمال مفتاح ومحمد بنيس وحميد الحمداني وحسن بحراوي ومحمد برادة وغيرهم أشّرت باتجاههم لتاصيل مشاريع نقدية وصياغة خطاب

نقدي لايتعالم – ايضاً – على المتلقي ويحترم ذائقته، نؤكد انه على الرغم من كل ذا بقي التساؤل واحداً وصادماً عن دور الناقد العربي المعاصر في التأسيس النظري النقدي الممنهج.

٣- ولاجله ايضاً فان أهمية مشروع مفتاح ماثلة في طرق عدة ومن غير ما ذكرنا يبرز اتجاه متميز للناقد في ادراك خصائص التراث الأدبي والثقافي المغربي ومراجعة تحليلية لسياق المؤلَّف الفكري المتنوع في بلاد المغرب، وذلك عبر الحفر في لغته المكونة له لاستنطاقها والالتفات اليها وصهرها اجرائياً من منظومة الناقد التي واكبت التطورات النقدية المعاصرة واحست بخطورة القفز بينها أو استدراجها لتقول ما لايناسب المادة الابداية في بيئتها المنتجة لها ولذلك انتقى محمد مفتاح حزمة من النصوص التراثية وتوسع في فحوصه السيميائية لتشمل نصوصاً شعرية وسردية ودينية وصوفية ولمس بدقة أمراً مهماً لم تغفله دراساته وتعني به التحقيب الذي جعل مفتاح يقرا النظرية النقدية ليطرح اسئلته عليها ويجيب بالعودة إلى تراث غزير لكشف انساقه الغائرة سيميائياً.

لقد طرح بحثنا اسئلته واجاب عنها محلّلاً طبيعة المشهد النقدي العربي المعاصر ومدى التفاوت الحاصل في قراءة النظرية وكيفيات الكامل معها من الناقد العربي منتقياً تجربة عبد الله الغذامي ومحمد مفتاح ليعرض عبر تحليلهما رؤيتنا الخاصة لما يدور في البيت النقدي العربي المعاصر.

الهوامش والمصادر

(١) الحداثة وما بعد الحداثة، اعداد وتقديم بيتر بروكر، ترجمة: د. عبد الوهاب علوب، مراجعة: د. جابر عصفور، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، الامارات، ط١، ١٩٩٥، ص ٥ المقدمة.

(٢) الخروج من التيه ، د . عبد العزيز حمودة، مطابع السياسة ، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٣، ص ١٥.

(٣) نفسه ، ص ١٥٠.

(٤) نفسه ، ص ٧٥.

(٥) نفسه ، ص ٧٥.

(٦) فى آليات النقد الأدبي ، د . عبد السلام المسدي، المطبعة الأساسية، تونس، دار الجنوب للنشر، ١٩٩٤، ص ٣٩.

(٧) ينظر الموقع الالكتروني: رابطة أدباء الشام:

www.odabasham.net.

(٨) الموقف من الحداثة ، دار البلاد ، جدة ، ١٩٨٧، الرياض ، ط٢ ، ١٩٩٢ ، ص١٢.

(٩) ينظر ، نفسه ، ص ١٢-١٣.

(١٠) نفسه ، ص ٤١.

(١١) النقد الثقافى، قراءة فى الانساق الثقافية العربية، د. عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ٢٠٠٥، ص٨.

(١٢) ينظر، تأنيث القصيدة والقارئ المختلف، د. عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٥، ص ١٨-١٩.

(١٣) الخروج من التيه، ص ٣٨-٣٩.

(١٤) الحداثة وما بعد الحداثة، بيتر بروكر، ص ١٥.

(١٥) ينظر الموقع الالكتروني : مجلة العربي، العدد ٥٩٦، تموز ، ٢٠٠٨:

www.٣arabimag.com.

Kinetic experimentation and Problematic resett Lement of Monetary theory in the Contemporary arab monetary

Assistant Professor Dr. Ansam Mohammed Rashid

Research Summary

Comes to talk about the arabscene today Pull of Paschkagliat, the eash is not the First of many ask the question and deleve in to their in terpretations and their impact on the Arab intellectual and mixing visions come out factdialogue and allaqahalvkrew alhoudara to holo caust dependency and alienation and identity blur and talk about the (garibh) arab identity did not satisfy her heritage walther great whonever you putconfronted with literary output and amodern western intellectual has had precedence in payroll settle today between hands of Literary thegreat of Literary khasahibthalil literary texts and Tusighapoetry and prose and methods of analysis and detection of the aesthetics of buildings and that means Payment Principle of forward to turnit to circle of intellectual interlock between arab civilization and produced by the west since the greeks up to the eras of our time today.

Moving our group of these problems to discuss two issues First is the role of the arab thinker in absorbing critic of contem porary critical the ories in both its moelernist and post. Modernist or adouble role in the new global trend spree which took swallows another cultural thought insurance on and his only other thing corresponded in that if we took global monetary theories and benefited them up to help us to produce arab monetary theory awaited since the Fifties of the Last century really does catch what we aspire to him and work for him mundsnis.